المحاضرة التاسعة

الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب القديم 534-647م

1- لمحة عن الإمبراطورية البيزنطية :

يرى الكثير من المؤرخين أن الإمبراطورية البيزنطية ما هي إلا امتداد تاريخي للإمبراطورية الرومانية ، ويطلق عليها أيضا اسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية تمييزا لها عن الإمبراطورية الرومانية الغربية التي عاصمتها روما، وقد ظهرت الإمبراطورية البيزنطية التي عاصمتها بيزنطا بشكل كامل بعد وفاة الإمبراطور تيودوسيوس الأول واقتسام الأقاليم الرومانية بين ولديه، حيث اعتلى عرش روما الشرقية –بيزنطا- الملك أركاديوس وعرش روما الغربية الملك هونورياس مع أواخر القرن الرابع ميلادي، و استمرت الحضارة الرومانية بعد سقوط روما الغربية سنة 476م على يد القوط الشرقيين متمثلة في الإمبراطورية البيزنطية إلى غاية سقوطها في يد الفاتحين المسلمين في القرن الخامس عشر للميلاد على يد محمد الفاتح سنة 1453م .

2- أسباب الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب القديم :

تعددت واختلفت أسباب الحملة البيزنطية على بلاد المغرب ، فمنها ما هو خاص بالإمبراطور جوستينيان والإمبراطورية البيزنطية، ومنها ما هو خاص بمملكة الوندال في حدَ ذاتها والظروف التي تعيشها في بلاد المغرب إلى جانب القبائل المورية وبقايا الرومان من ملاك كبار ورجال دين كاثوليك، وفيما يلي إبراز أهم الأسباب التي زادت من رغبة الإمبراطور البيزنطي جوستينيان في إرسال حملة والقضاء على الوندال ببلاد المغرب القديم:

- الرَخاء الاقتصادي الكبير لبلاد المغرب زاد من رغبة الإمبراطور جوستينيان في تعويض ما خسرته بيزنطا في حروبها في الشرق مع الفرس .

- سعي الإمبراطور جوستينيان منذ وصوله للحكم إلى إعادة تحقيق الوحدة بين الشرق و الغرب في إمبراطورية واحدة كما كانت عليه في الفترة الرومانية القديمة و بدأ مشروعه باحتلال المغرب القديم الذي كان تحت سيطرت القبائل الوندالية والمورية.

- الضَعف الذي دبَ في المملكة الوندالية ، خاصة بعد تراجع حدود السيطرة الوندالية بسبب الحروب الكثيرة التي قامت بها القبائل المورية ضد الوندال، والتي أدَت إلى ضعف وتفكك الجيش الوندالي خاصة بعد وفاة الملك جنسريق.

- كثرة الصراعات والانقسامات السياسية داخل البيت الملكي الوندالي، خاصة بعد تولي القائد جلمير عرش المملكة الوندالية و تحالفه مع أبرز القادة الوندالين والانقلاب على الملك هلدريك سنة 530م.

- كثرة الاظطهادات الوندالية الأريوسية على رجال الدين المسيحيين الكاثوليك في المغرب القديم من أهم أسباب الاحتلال البيزنطي للمنطقة، حيث فرضت عليهم السلطة الوندالية قوانين مجحفة تمثلت في مصادرة أراضيهم ومنعهم من التجمعات الدينية و الثقافية وممارسة شعائرهم الكاثوليكية، ومصادرة أملاك الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين ونفيهم وحرق كتبهم الدينية، الأمر الذي دفع بالإمبراطور جوستينيان إلى التفكير في إرسال حملة لبلاد المغرب خاصة بعد توالي الاستنجاد من رجال الدين والسكان الرومان والمترومنين من بلاد المغرب بالإمبراطور جوستينيان الذي اعتبر نفسه حاميا للديانة المسيحية ولمعتنقيها في كامل أرجاء العالم القديم.

3- مراحل الاحتلال البيزنطي:

أبحر القائد بليزاريوس من بيزنطا باتجاه قرطاج و لم يلق أي صعوبة في البحر، دون أن يتعرض إلى هجوم بحري من طرف الوندال، وهو عكس ما كان يتوقعه ، حيث رست الجيوش البيزنطية على سواحل قرطاج ورست السفن البيزنطية بالتحديد في موقع رأس كبوديا (Caput Vada) في سبتمبر من عام 533م دون أي مقاومة من الوندال كما كان منتظرا، وكانت هذه المنطقة تبعد عن قرطاج مسافة 200 كلم ، وهي حسب تقدير بروكوب تبعد عن قرطاج مسيرة خمس أيام سيرا عاديا.

هذا وقد عرف الصراع الوندالي البيزنطي مرحليتين ومواجهتين مختلفتين من الصراع، يمكن إيجازهما فيما يلي:

- **معركة أد ديكيوم Ad Dicium)** : وصلت الجيوش البيزنطية إلى ديكيمون بعد مسيرة ثلاثة أيام وقد التقت الجيوش البيزنطية بقيادة بليزار والجيوش الوندالية بقيادة جلمير في موقعة ديكيمون في سبتمبر 533م، وحسب بروكوب أن بليزار استطاع أن يقضي في هذه المعركة عما يزيد عن عشرون ألف وندالي ، وهو عدد حسب رأينا مبالغ فيه وبذلك استطاعت الجيوش البيزنطية بقيادة بليزار بعد الانتصار الأول دخول العاصمة قرطاج واحتلالها وإخضاع سكانها.

- **معركة تريكا ماروم(Tricamarum)** : تكلم بروكوب عن خروج القائد بليزاريوس من قرطاج رفقة عدد من الجنود والفرسان للمعركة الفاصلة والنهائية، حيث لم يترك سوى عدد قليل من الجنود لحماية العاصمة قرطاج التي قام بتحصينها وبناء أسوارها المحطمة وترميمها من أي هجوم محتمل من طرف الملك جلمير، الذي كان معسكرا في موقعة تريكاماروم(Tricamaron) وهي منطقة تبعد عن قرطاج قرابة مائة وأربعين ستاد (stades).

وبعد معركة كبيرة قام بها بليزاريوس وقادته استطاع هذا الأخير القضاء على جلمير وقواته في معركة تريكيماروم في ديسمبر533م ، الأمر الذي أدى بهذا الأخير إلى الانسحاب والفرار إلى قبائل حليفة في مقاطعة نوميديا في جبل بابوا (papoua) وهي اخر مواجهة انتهت بالاحتلال الفعلي للبيزنطيين للمغرب القديم بعد القضاء على الوندال.

4- حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب :

فيما يخص حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب يمكن القول إن السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب اقتصرت على تونس حاليا وأجزاء من نوميديا وصولا إلى موريطانيا السطايفية و المدن الساحلية مثل قيصارية ومدينة سبتة، أما الأراضي الأخرى فقد استرجعتها القبائل المورية وسيطرت عليها .

ويمكن القول ايضا أن الاحتلال البيزنطي كان محدودا وجزئيا مع بداية الاحتلال وبعد القضاء على الوندال، إذ شمل في البداية الإقليم الساحلي من طرابلس وأجزاء من البيزاكينا و البروقنصلية وبعض المدن الساحلية من نوميديا وموريطانيا و الموانئ المهمة

على طول الشريط الساحلي، مثل ميناء مدينة سبتة، و ماعدا ذلك فإن الاحتلال البيزنطي لم يتوغل في الداخل وكانت المناطق الأخرى تحت سلطة قادة المور.

وبهذا فقد فشلت السياسة البيزنطية في التوسع نحو الداخل لا سيما في المناطق الداخلية لموريطانيا القيصرية والطنجية حيث أن سهولة القضاء على الوندال لا تعني سهولة التوسع والتوغل إلى الداخل و إخضاع القبائل المورية، حيث وجدت السلطة البيزنطية مقاومة عنيفة من طرف السكان المحليين أفشلت المخططات التوسعية البيزنطية في الداخل بعد كشف نوايا الاحتلال البيزنطي الذي كان يذكر ويقر أنه أتى لبلاد المغرب كمحرَر للسكان من التعسف الوندالي وليس كمستعمر، ولكن ما حصل كان عكس ذلك إذ باشر القادة البيزنطيون سياستهم التوسعية ومصادرة الأراضي، الأمر الذي لم تتقبله القبائل المورية، حيث بدأت سلسلة صراعات لم تتوقف طيلة الاحتلال البيزنطي والى غاية سقوطهم على يد المسلمين أواخر النصف الأول من القرن السابع للميلاد .

خريطة تبين طريق الحملة البزنطية على الوندال ومناطق الصراع بين الطرفين

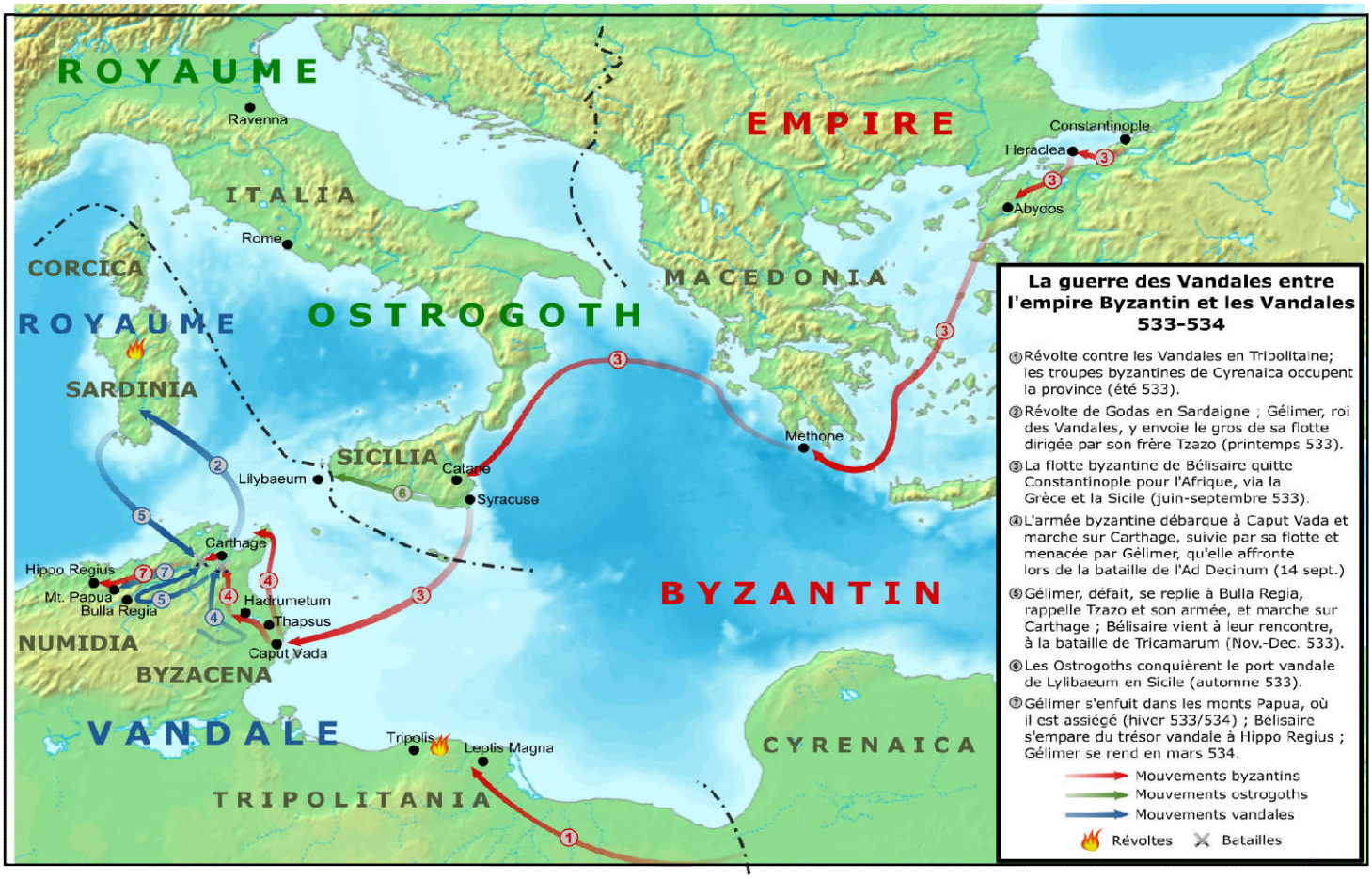

5- السياسة الإدارية البيزنطية في بلاد المغرب

بعد تجسيد الاحتلال العسكري البيزنطي والقضاء على الاحتلال الوندالي في المغرب القديم وبسط النفوذ البيزنطي في المنطقة، سعى الإمبراطور جوستنيان إلى التوسع ومحاولة الوصول في ذلك إلى الحدود الرومانية القديمة .

ولتجسيد ذلك أصدر الإمبراطور جوستنيان مرسومين في أفريل 534م، المرسوم الأول أرسله إلى أرخيلايوس (Archélaos) حيث وكّلت إليه مهام التكفل بالأمور المدنية وتنظيم الإدارة في مقاطعة بلاد المغرب(Provincia Africa)، وتقسيمها إلى سبع ولايات ، حيث يظهر المرسوم تقسيم بلاد المغرب إلى سبع مقاطعات تكون كل من ولاية البروقنصلية المزاق وطرابلس تحت حكم قناصل، أما نوميديا موريطانيا وسردينيا تحت حكم رؤساء.

والمرسوم الثاني وجّهه إلى القائد العسكري صولومون(Solomone) أمره فيه بالقيام بتنظيم الإدارة العسكرية في المنطقة ، وذلك بإنشاء خمس دوقيات في كل من

مقاطعات طرابلس، البيزاكينا، نوميديا وموريطانيا القيصرية وفي سردينيا، كما تضمن المرسوم المدن أو عواصم إقامة الدوق.

وضعت مقاطعة بلاد المغرب تحت سلطة حاكم برتبة برايطور(Praeteur) كنائب للإمبراطور في كامل المقاطعة، حيث يمثل البرايطور بذلك السلطة المركزية و يخضع له كل حكام الولايات في بلاد المغرب الذين يمثلون السلطة الجهوية، وقد كانت فكرة منح السلطات العسكرية لحكام المقاطعات تدور في ذهن جوستينيان من قبل وذلك بعدما احتل بلاد المغرب، حيث عيَن عليها حاكما يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وهو ما كان في فترة القائد بليزاريوس وصولومون .

6- موقف المور من السياسة البيزنطية :

مع نجاح الحملة البيزنطية على بلاد المغرب سارعت السلطة البيزنطية إلى ربط علاقات ودية مع زعماء القبائل المورية، ووجدت هذه الأخيرة الفرصة في الاستقلال وامتلاك أراضي زراعية مقابل علاقتها السلمية مع بيزنطا، نجد منها القبائل الطرابلسية وقائدها إيرنا(Irna) ، والقائد أنتالاس(Antalas) في تالة زعيم قبائل الفراكسيس، وكوتزيناس(Coutzinas) في البيزاكينا.

حيث لم تحدث أي حروب أو صراعات بين القبائل المورية وجيوش بليزار، إلاَ أنَ مغادرة هذا الأخير لبلاد المغرب سنة 534م ورجوعه إلى بيزنطا وتعيين القائد صولومون حاكما جديدا للمنطقة أدَى إلى توتَر العلاقات بين السلطة البيزنطية و زعماء المور، والسبب ربما يعود إلى سياسة هذا الأخير اتجاه هذه القبائل، وبالخصوص السياسة التوسعية التي انتهجها على حساب أراضي القبائل المورية ومحاولة التهرب من الالتزامات المالية، والهدايا التي كانت تحصل عليها هذه القبائل في عهد بليزار، الأمر الذي زاد ربما من حدة الصَراع بين الطرفين.